الفصل الثاني
فترة تأسيس الإمارة

obeikandl.com

١ – فى سبيل استقرار سياسى :

تتمثل هذه الفترة فى عهد عبد الرحمن الداخل وابنه هشام وحفيده الحكم[١] وأهم ما تمتاز به من الناحية السياسية ، أنها كانت فترة علاج لكثير من الأمراض التى عاناها الحكم الأندلسى فى فترة الولاة ، فقد وفد عبد الرحمن الداخل على الأندلس ، وبها القبائل العربية المتنازعة على السلطان . وبها أيضاً جماعات البربر الناقمة على العرب الاستئثار بالأمر ، وبالإضافة إلى العرب ومنازعاتهم والبربر ونقمتهم ، كان يوجد المسيحيون اللائذون بالمناطق الشمالية من شبه الجزيرة ، ثم الفرنج المتربصون فيما وراء البرانس . وكان هؤلاء وأولئك يتحفزون لمطاردة المسلمين لأنهم – فى زعمهم – يمثلون خطراً لا على إسبانيا وحدها بل على أوربا كلها .

من أجل هذا قضى عبد الرحمن الداخل كل سنى حكمه تقريباً فى كفاح داخلى وجهاد خارجى ؛ فقلل من شأن الاستقراطية العربية باستخدام غير العرب واصطناع الموالى[٢] ، وقضى على الزعامة القبلية بالتخلص من كل من تحدثه نفسه بالثورة أو التمرد ، وحاول ما استطاع أن يؤمن حدود الدولة الإسلامية فى الأندلس ضد مسيحيي الإسبان والفرنج ، بقيادة الجيوش وتسيير الحملات إلى هؤلاء وأولئك .

وفعل هشام بن عبد الرحمن مثل ما فعل أبوه ، وسار الحكم الربضيّ سيرة الأب

---

(١) حكم الداخل من سنة ١٣٨ إلى ١٧٢ هـ (٧٥٥ إلى ٧٨٨ م) .
وحكم هشام من سنة ١٧٢ إلى ١٨٠ هـ (٧٨٨ إلى ٧٩٦ م) .
وحكم الحكم من سنة ١٨٠ إلى ٢٠٦ هـ (٧٩٦ إلى ٨٢٢ م) .
فتكون هذه الفترة من سنة ١٣٨ إلى ٢٠٦ هـ (٧٥٥ إلى ٨٢٢ م)

(٢) انظر : نفح الطيب للمقرى جـ ١ ص ١٥٦ .

والجد[١]، وكان أشبه بالداخل فى الحزم والصرامة والقسوة من أجل تثبيت النظام وتدعيم الحكم . وقصة إخماده لثورة الرَّبَض من أوضح الأدلة على طريقته فى السياسة ومعالجة الأمور . ومن أوضح الأدلة على طابع سياسة العصر .

وثورة الربض ثورة قام بها سكان الضاحية القرطبية المسماة بهذا الاسم ، وكان أكثرهم من المولدين — أى الإسبان المسلمين — وقد كانت ثورتهم ذات أسباب بعيدة ترجع إلى سخط العامة — وخاصة المولدين — على الأمير الحكم لما اشتهر به من تحرر وعدم مبالاة ، وكان لدعايات الفقهاء أثر كبير فى إقناع العامة بالسخط على الأمير .

أما السبب المباشر للثورة فهو مشادة وقعت بين أحد مماليك الحكم وصيقل سيوف من العامة ، وقد كان من نتائج تلك المشادة أن قتل الصيقل بيد المملوك ؛ فثار العامة ، وكان أشدهم هياجاً أهل الربض الجنوبى ـ الواقع على الضفة الأخرى لنهر الوادى الكبير . وزحفت جموع الثوار على القصر الأميرى وأحاطوا به من كل ناحية ، وكادوا يقضون على الأمير والإمارة جميعاً ؛ لولا أن تنبه الحكم إلى حيلة فيها ذكاء وفيها قسوة أيضاً ؛ فقد أرسل بعض أعوانه إلى الربض فأشعل فيه النار ، وهنا اضطر الثوار إلى الإسراع إلى ربضهم لإنقاذ أولادهم ونسائهم وذويهم . وانتهز الحكم الفرصة فأمر جنوده بالانقضاض على الثوار وهم فى انسحابهم واضطرابهم ، فأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، ثم أمر الحكم بالربض فهدم ، وبالباقين من أهله فطردوا[٢] .

---

(١) انظر لتصوير كفاح عبد الرحمن وابنه وحفيده : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٧٢ وما بعدها . وأخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ٦٧ وما بعدها .

وانظر أيضاً : Al Bornoz : La Espana musulmana, vol. I, pp. 88 ff.

Levi : Espana musulmana, pp. 67 ff.

(٢) انظر فى واقعة الربض : البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١١٣ وما بعدها ، ونفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٥٩ ، والمعجب لعبد الرحمن المراكشى ص ١٢ وما بعدها .

وانظر كذلك : Palencia, Historia de la Espana musulmana, pp. 26 ff.

ومن هنا نرى أن تلك الفترة من الناحية السياسية كانت فترة علاج لكثير من أدواء الحكم التى عانتها الأندلس من قبل. وقد كان لهذا العلاج مقتضياته من البتر حيناً ومن إسالة الدم حيناً آخر .

وهكذا شهدت تلك الفترة بعض الحروب وأعمال العنف ، ولكنها كانت فى سبيل الاستقرار السياسى الذى خلف تقدماً وأمناً ، ولم تكن المسألة مسألة منازعات وحروب تخلف ضياعاً وتعويقاً فقط كالفترة السالفة .

٢ – فى سبيل مجتمع أندلسى :

كان من أهم ظواهر المجتمع الأندلسى فى تلك الفترة ، ضعف العصبية القبلية والمنازعات العنصرية ، ثم اتجاه سكان الأندلس إلى وحدة اجتماعية يصلون إلى ذروتها فى عهد الخليفة الناصر. وكان ذلك بفضل جهود عبد الرحمن الداخل ومن حكم من بعده من أبنائه . وقد ذكرنا أنه كسر شوكة الارستقراطية العربية وحد من عصبية القبائل ، بمطاردة الزعماء المناوئين أولا ، وباستخدام كثير من الموالى وغير العرب ثانياً . وقد عُرف أن أبناءه ساروا على سنته بل بالغوا فيها حتى كان عدد الموالى والصقالبة فى عهد الحكم خمسة آلاف[1] .

وكان من أهم ظواهر المجتمع كذلك فى تلك الفترة ، ظهور طبقة اجتماعية جديدة أصبح لها كيانها ومكانتها بين طبقات المجتمع الأندلسى ؛ تلك الطبقة هى طبقة المولدين ، التى تتألف من أبناء الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام ، وكثروا بمضى الزمن واستمرار الدخول فى الدين الجديد . ولا شك أن وجود مثل هذه الطبقة قد زاد من الأكثرية المسلمة حينئذ. وصبغ الحياة الإسبانية بصبغة أكثر إسلامية وعروبة .

---

(١) انظر : المغرب لابن سعيد ج ١ ص ٣٥ .

كذلك كان من أهم المظاهر الاجتماعية فى فترة تأسيس الإمارة الأموية ، هذا التقدم الحضارى النسبى الذى خطت نحوه الأندلس ، ممثلا فى أعمال الإنشاء والتعمير والتجميل التى قام بها الداخل وأبناؤه من بعده ؛ فقد أسس عبد الرحمن مسجد قرطبة الجامع[١] ، كما أنشىء فى عهده وفى عهد بنيه كثير من المساجد فى أقاليم مختلفة من الأندلس . كذلك أنشأ عبد الرحمن الرصافة التى كانت مقر الإمارة بالشمال الغربى من قرطبة ، وأقام سوراً للعاصة الأندلسية . وغرس بها بعض الحدائق الجميلة ، وجلب أنواعاً من المزروعات المشرقية[٢] .

وأخيراً كان من أهم مظاهر المجتمع الأندلسى فى تلك الفترة ظهور شخصية المرأة فى مجال الفن ؛ فقد استقدم عبد الرحمن الداخل بعض الفنانات المشرقيات وأسس لهن بالقصر داراً عرفت بدار المدنيات ؛ لأن أغلبهن كن من المدينة التى اشتهرت بفنون الموسيقى والغناء فى تلك السنوات . وكان من هؤلاء الفنانات المدنيات اللائى وضعن بذور الموسيقى العربية فى الأندلس : فضل وعلم والعجفاء . كما كان من الفنانات اللاتى عرفن فى تلك الفترة : قلم ، وأصلها إسبانية من سبى البشكنس . ولكنها أدبت فى المدينة ، وعملت بعد ذلك فى دار المغنيات مع صواحبها[٣] .

وهكذا كان المجتمع الأندلسى فى تلك الفترة ، مجتمعاً مستقرًّا نسبيًّا ، فهو يحيا أكثر أمناً فى ظل حكومة مدعمة . وهو يعيش أكثر وحدة فى حمى نظام حارب القبلية والعصبية ، وفتح الطريق للأندلسية الحقة . ثم كان المجتمع فى تلك الفترة يفتح عينيه على بواكير حضارة ، أراد الأمويون أن يعيدوا بها فى الأندلس حضارة فقدوها بالمشرق .

---

(١) انظر فى تاريخ هذا المسجد : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٤١ وما بعدها .

(٢) انظر : نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ٢٧ . وكتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٣٣

(٣) انظر أخبار هؤلاء الفنانات فى : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٨ ، ١١٩ .

٣ ـ أولية الثقافة الأندلسية :

خطت الأندلس فى تلك الفترة أولى الخطوات نحو الثقافة الأندلسية الحقة . وقد دفعت الأندلس عوامل مختلفة ، وساعدتها على الخطوة الأولى فى سبيل ثقافتها . وكان من تلك العوامل :

وفود كثير من الأمويين وأنصارهم واللائذين بهم على الأندلس[١] . وقد كان قدوم هؤلاء ، إما فراراً من العباسيين ، وإما رغبة فى الحياة بالإقليم الإسلامى الجديد المعروف بكثرة الخيرات . ولا شك أن كثيراً من هؤلاء الوافدين على الأندلس كانوا على حظ كبير من الثقافة وقدر عظيم من المعرفة ، ولا شك أن حياتهم فى الأندلس ستذيع ثقافتهم وتشيع معارفهم وتساعد البلاد على أن تخطو فى طريق الثقافة .

كذلك كان من أهم العوامل التى دفعت الأندلس إلى الخطو نحو حياتها الثقافية ، رجوع أول فوج من الأندلسيين الدارسين فى المشرق ؛ فقد كان هؤلاء بمثابة أعضاء البعثات الذين يتعلمون خارج بلادهم ثم يعودون ليشيعوا ما تعلموا بين أهليهم وفى أرجاء وطنهم. ومن أمثلة هؤلاء العائدين بعلم المشرق فى فترة تأسيس الإمارة : الغازى بن قيس ، الذى سمع من مالك موطأه ، ثم عاد فى عهد الداخل فكان مكرماً له وسخيًّا عليه[٢]. كذلك كان من هؤلاء العائدين : أبو موسى الهوارى ، وعبد الملك بن حبيب ، ويحيى ابن يحيى الليثى ، وزياد بن عبد الرحمن ؛ وكلهم من العلماء الكبار الذين يمثلون الجيل الأول من أهل الثقافة الأندلسية[٣] .

---

(١) من هؤلاء : أبو الأشعث الكلبى الذى كان محدثاً يروى عن أمه عن عائشة . ومنهم جزى بن عبد العزيز أخو عمر بن عبد العزيز . ومنهم عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم الأموى .
انظر : نفح الطيب ، ج ٢ ص ٧٧ وما بعدها .

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ .

(٣) انظر فى الراحلين من الأندلسيين إلى المشرق : نفح الطيب للمقرى جـ ١ ص ٢٣٦ وما بعدها .

ولن ننسى أن من أهم عوامل دفع الثقافة الأندلسية فى تلك الفترة ، ما كان من إنشاء مسجد قرطبة وغيره ؛ فقد كانت المساجد فى تلك الآونة بمثابة المدارس والجامعات. وقد كان مسجد قرطبة بالذات هو النواة الحقيقية للجامعة الأندلسية التى أسست فى تلك الفترة ، والتى ستتسع فى العصور التالية حتى تكون فى القرن العاشر أعظم جامعات إسبانيا بل أعظم جامعات أوربا .

وقد ظل الحال فى تلك الفترة كما كان فى الفترة السابقة تقريباً من حيث الاقتصار فى الثقافة الأندلسية على العلوم الدينية والعربية ، وإن كان الأمر قد تطور إلى خطو نحو حياة ثقافية حقيقية ، بفضل تلك العوامل السالفة الذكر . فالدراسة فى تلك الآونة كانت تدور غالباً حول كتاب الله حفظاً وتفسيراً وقراءات ، وحول سنة الرسول رواية وشرحاً واستنباط أحكام ، ثم حول لغة القرآن والسنة . وما يتصل بها من شعر وأخبار وأدب على وجه العموم .

ولعل من المناسب هنا أن نشير إلى ظاهرة لها شأنها فى حياة الأندلسيين الثقافية . تلك الظاهرة هى تحولهم من مذهب الأوزاعى إلى مذهب مالك ، ثم بقاؤهم دائماً على هذا المذهب مع تعصب له يلفت النظر . فقد كان الأندلسيون أول الأمر أوزاعيين[1] ، لأن أغلب العرب الداخلين إلى الأندلس كانوا من أهل الشام ، وكان أهل الشام على مذهب الأوزاعى ؛ فكان طبيعياً أن ينتقل الشاميون إلى الأندلس بمذهبهم . فلما جاءت الفترة التى نسوق عنها الحديث — وهى فترة تأسيس الإمارة الأموية — دخل المذهب المالكى إلى الأندلس وكان ذلك فى عهد عبد الرحمن الداخل[2] . ثم انتشر فى عهد ابنه هشام ، حتى أصبح المذهب الرسمى للدولة أولا ، والمذهب الغالب الشائع العام بين الناس ثانياً .

---

(١) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ج ١ ص ١٨١ .

(٢) انظر : حديث ابن القوطية عن الغازى بن قيس فى : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٥ .

والفضل الأكبر فى شيوع المذهب المالكى فى الأندلس ، يرجع إلى طائفة من العلماء الأندلسيين المالكيين الذين درسوا المذهب فى المشرق ، ثم عادوا إلى بلادهم وتمتعوا بنفوذ كبير . مكن لهم من نشر المذهب وإعطائه الطابع الرسمى . وفى مقدمة هؤلاء الفقهاء الذين مكنوا للمذهب المالكى : يحيى بن يحيى الليثى الذى درس على مالك نفسه ، وكان بعد ذلك من خاصة هشام بن عبد الرحمن الداخل .

على أن من أهم العوامل التى حملت الأندلسيين على الإعجاب بالمذهب المالكى والتمسك به والتعصب له ، موافقته لطبيعتهم العقلية ؛ فهو مذهب يعتمد على النص ، ولا يفسح المجال كثيراً للعقل ، وهو مذهب يكره التفريع والتفلسف والمنطق ، وما أشبه ذلك مما شاع فى المذهب الحنفى مثلا . ومن هنا وافق المذهب المالكى طبيعة الأندلسيين النافرين من التفريع ، المبغضين للتفلسف ، الكارهين للمنطقة .

وربما كان لتعصبهم الشديد للمذهب المالكى ، وكراهيتهم للتفريع وتعدد المذاهب ؛ علاقة بما سبق أن قررناه من كونهم كانوا يعانون شبه مركب نقص أمام المشارقة ، وكان هذا يأخذ مظهر التعصب للمذهب الواحد والتمسك بكل ما هو نصى ، كأنهم يريدون بذلك أن يؤكدوا تمسكهم بالدين وبعدهم عن الزيغ وتجنبهم للشبهات ، وكأن هذا معناه فى زعمهم اللاشعورى أنهم متفوقون على المشارقة فى الدين برغم بعدهم عن مهده ، وأنهم أكثر محافظة على الإسلام برغم نأيهم عن مشرقه .

٤ ـ أولية الأدب الأندلسى :

أول ما يلاحظ على الحياة الأدبية لتلك الفترة من تاريخ الأندلس ، ظهور أول جيل من الأدباء الأندلسيين الحقيقيين ، ثم يلاحظ أيضاً ظهور بعض أديبات الأندلس ، كذلك يلاحظ عدم اقتصار الاشتغال بالأدب على الشعب ، بل مشاركة الحكام فيه

أيضاً . وقبل كل هذا يلاحظ ظهور السمات الأولى للأدب الأندلسى ؛ تلك السمات التى سوف تتزايد على مر العصور ، حتى تتم ملامح الأدب الأندلسى بصورة واضحة .

وهكذا تشاهد هذه الفترة أولى خطوات الأندلس نحو أدب أندلسى متميز ؛ ففيها ينشأ أول جيل من أدباء وأديبات الأندلس ، ولا يصبح الأدب وقفاً على الوافدين من المشرق كما كان الحال من قبل ، وفيها تصاغ النماذج الأدبية الأولى . التى تعد من تراث الأندلس بحق ، وفيها زيادة على ذلك تبدو تلك السمات الأولى ، التى تشكل أول خطوط الملامح الأدبية لهذا الإقليم الخاص . وسوف يتضح ذلك حين نتناول كلا من الجنسين الأدبيين تناولا مستقلاً .

أولا — الشعر :

كان الشعر الأندلسى فى تلك الفترة يسير فى اتجاه المدرسة المحافظة المشرقية Clasica ولكن مع تميزه بسمات خاصة تشكل أوائل ملامحه منذ نشأته كشعر أندلسى .

(ا) الاتجاه المحافظ :

أما مظاهر هذا الاتجاه المحافظ ، فتتمثل فى أن الشعر الأندلسى كان يهتم أكثر ما يهتم بالموضوعات التقليدية ، من فخر ومدح وحماسة ، وما إلى ذلك ، ثم فى أنه كان يسير على منهج الأقدمين فى بناء القصيدة ، وفى تجميع صورها غالباً من عالم البادية ، وتأليف أسلوبها فى الأعم من لغة تستوحى الذاكرة والتراث ، أكثر مما تستوحى العصر والواقع .

ولنتأمل مثلا تلك النماذج :

يقول أبو المخشىّ من قصيدة يمدح بها عبد الرحمن الداخل ويصف الرحلة إليه :

امتطيناها سماناً بُدنا فتركناها نضاء بالعنا
وذريني قد تجاوزت بها مهمها قفراً إلى أهل الندى
قاصداً خير مناف كلها ومناف خير من فوق الثرى[١]

ويقول أبو المخشى أيضاً من قصيدة فى مدح الداخل ، وتمجيد بعض انتصاراته والثناء على بطولة الأمير سليمان ابنه :

وإذا تساءلَ عن مواقع معشر وذويهم طلب الذى لم يُقدرِ
رشد الخليفة إذ غووا فرماهم بالمُوبِذِىّ الجهم والمتأزر[٢]
وغدا سليمان السماح عليهم كالليث لا يلوى على متعذر
غاداهمُ متقنعاً فى مأزق بالموت مرتجس العوارض ممطر[٣]
أما سليمان السماح فإنه جلّى الدجى وأقام ميل الأصعر
وهو الذى ورث الندى أهل الندى ومحا مغبة يوم وادى الأحمر
بعداً لقتلى بالمجانص[٤] أصبحت جيفاً تلوح عظامها لم تقبر
فالليل فيها للذئاب فرائس ونهارها وقع لنبش الأنسر
أفناهم سيف مبيد طرفه فى قسطلونة بل بوادى الأحمر
فلتركبنك ما هربت مخافة منه ، فقع يا ابن اللقيطة أوطر[٥]

---

(١) وردت هذه الأبيات فى الإحاطة لابن الخطيب (مخطوط بالإسكوريال رقم ١٦٧٣ ورقة ٣٥٢).
(٢) الموبذى : فقيه الفرس ، وحاكم المجوس ، والجهم : الغليظ . والمتأزر : المتقوى .
(٣) مرتجس : من ارتجست السماء أى أرعدت ، والعوارض : السحب العظيمة .
(٤) المجانص : جمع مجنص ، وهو اسم مكان من جنص أى مات فزعاً .
(٥) وردت هذه الأبيات فى مخطوطة الإحاطة التى سبقت الإشارة إليها .

ويقول الحكم بن هشام مفتخراً ببطولته وقوته وانتصاره فى موقعه الربض :

رأيتُ صدوع الأرض بالسيف راقعا ... وقدماً لأمت الشعب مذ كنت يافعا

فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة ... أبادرها مستنضى السيف دارعا

وشافه على الأرض الفضاء جماجماً ... كأقحاف شريان الهبيد[1] لوامعا

تنبّيك أنى لم أكن فى قراعهم ... بوان ، وأنى كنت بالسيف قارعا

وأنىَ إذ حادوا جزاعاً من الردى ... فلم أكُ ذا حيد من الموت جازعا

حميت ذمارى فانتهبت ذمارهم ... ومن لا يحامى ظل خزيان ضارعا

ولما تساقينا سجالا حروبنا ... سقيتهمُ سمًّا من الموت ناقعا

وهل زدت إن وفيتهم صاع قرضهم ... فوافوا منايا قدرت ومصارعا

فهاك بلادى إننى قد تركتها ... مهاداً ولم أترك عليها منازعا[2]

ويقول الحكم أيضاً فى تمجيد السيوف وأسلحة القتال :

غناءُ صليل البيض أشهى إلى الأذن ... من اللحن فى الأوتار واللهو والرَّدن[3]

إذا اختلفت زرق الأسنة والقنا ... أرتك نجوماً يطّلعن من الطعن

بها يهتدى السارى وينكشف الدجى ... وتستشعر الدنيا لباساً من الأمن[4]

فتأمُّل أمثال هذه النماذج يؤكد أن هذا الشعر يسير على خطى المدرسة المشرقية المحافظة ؛ من حيث بناء القصيدة الذى يميل فى المدح مثلا إلى البدء بوصف الرحلة

---

(١) الأقحاف : جمع قحفة ، وهى الفلقة التى تشبه قحف الرأس ، وشريان الهبيد : شجر الحنظل.

(٢) وردت هذه الأبيات فى أخبار مجموعة ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٣) الردن : صوت وقع السلاح بعضه على بعض .

(٤) وردت هذه الأبيات فى : أخبار مجموعة ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

إلى الممدوح ، وتحمل المشاق فى سبيل الوصول إليه ، وإرهاق الإبل وإتلاف المطايا خلال السفر إلى مكانه ؛ ومن حيث انتزاع الصور والمعانى من البيئة البدوية القديمة ؛ ثم من حيث التعبير بالأسلوب البدوى القديم كذلك ، ذلك الأسلوب الذى يعتمد على الألفاظ الجزلة وإن كانت غريبة ، ويتألف من العبارات الفخمة وإن جاءت خشنة ، وأخيراً من حيث الميل إلى الأبحر الطويلة ذات التفاعيل الكثيرة والقوافى الرنانة . والنماذج المتقدمة واضحة الدلالة على كل تلك الملامح المحافظة .

(ب) عوامل المحافظة :

وقبل أن نأخذ فى الحديث عن السمات الخاصة للشعر الأندلسى المحافظ نوضح مسألة يغيب فيها الحق عن كثير من الباحثين ؛ حيث يظنون أن سير الأندلسيين على النهج المحافظ فى الشعر كان دائماً بدافع التقليد ، ولم يكن له ما يقتضيه من حياة الأندلسيين . فالحق أن سيرهم على نهج المدرسة المحافظة التى وفدت من المشرق ، كان له ما يبرره من واقع الأندلسيين وظروفهم ، ثم من مثُلهم وقيمهم ، وتستوى فى ذلك تلك الفترة التى نتحدث عن شعرها مع غيرها من الفترات التاليات . أما واقعهم وظروفهم فقد كانت تتطلب إلى حد كبير هذه الموضوعات التقليدية التى عرف بها الشعر المحافظ ؛ فالفخر والحماسة من لوازم الصراع والغلبة ، وقد عرفت الأندلس كثيراً من ذلك فى تلك الفترة وفى غيرها من الفترات . والمدح كذلك من لوازم البيئة العربية القديمة ، وقد كانت البيئة الأندلسية تنطبع — إلى حد كبير — بالطابع العربى ، وخاصة حين كان حكامها يدعمون حكمهم ويقوون سلطانهم ؛ فهم يتخذون من الشعر أداة ترويج ووسيلة دعاية ، وهم قبل ذلك عرب الأمزجة ، يهشون للمدح وينبسطون للثناء . والغزل كذلك كان من لوازم البيئة العربية القديمة ، ومظهراً من مظاهرها الرئيسية وخاصة فى أوساط الفرسان . وقد عرفت الأندلس الفروسة منذ سنيها الأولى . ومن هنا رأينا شاعراً

كالحكم بن هشام يميل إلى الغزل ، وإلى المتهالك منه بنوع خاص . وليس ذلك بغريب عليه كفارس ؛ فشأن الفرسان أن يظهروا أقوياء أشداء فى ميادين الحرب ، وضعفاء مستكينين فى ميادين الحب .

وهكذا يمكن أن يقال فى باقى الأغراض التقليدية التى عالجها الشعر الأندلسى المحافظ ؛ فكلها يمكن اعتباره من مقتضيات واقع الأندلسيين وظروفهم

أما الأسلوب المحافظ الذى تناول به الشعراء الأندلسيون تلك الموضوعات التقليدية . فله تبريره من مثل الأندلسيين وقيمهم ؛ ذلك أن العرب كانوا ينتقلون إلى أى إقليم جديد ، وفى مخيلاتهم عالم مثالى ، هو ذلك العالم الذى عاش فيه آباؤهم الأقدمون ، حيث الصحراء والنوق ، والبان والكثبان ، والجآذر والآرام ، إلى آخر هذه الخطوط والألوان التى تؤلف لوحة البادية ، عالم العرب المثالى الأسطورى . وكان أبناء العرب يعتقدون أن خير أدب هو ما كتب آباؤهم فى عالمهم ذاك المثالى الأسطورى ، وأن قصارى الأديب بعد ذلك أن يأتى بما يشبه نتاج هؤلاء الرواد الأول . ومن هنا كانوا فى الأندلس يستلهمون هذا العالم المثالى الذى يتخيلونه عالم آبائهم وأجدادهم ، كما كانوا يحاكون هذه النماذج التى جادت بها قرائح الآباء والأجداد .

وشبيه بهذا ما فعله الأوربيون فى العصر « الكلاسى » حين راحوا يستلهمون العالم المثالى اليونانى والرومانى ، ويسيرون على النماذج التى رسمها أسلافهم اليونانيون والرومانيون ، وذلك برغم اختلاف العصور والبيئات والناس جميعاً . وربما كان أكثر شبهاً بما فعل المسلمون فى الأندلس ، ذلك الذى كان من أدباء أمريكا اللاتينية ، حين استوحوا الأدب الإسبانى التقليدى . باعتباره أدب عالمهم الأسطورى المثالى ، حتى لو جرد هذا الأدب الأمريكى اللاتينى من كل مافيه من رواسب إسبانية لم يبق منه شىء ذو قيمة[1] .

---

(١) انظر : Emilio Garcia Gomez, Poemas arabigo-andaluces, pp. 19 ff.

وانظر : الشعر الأندلسى (وهو ترجمة المصدر السابق قام بها الدكتور حسين مؤنس) ص ٧ — ٨ — .

هذا هو تعليل ما كان للإندلسيين فى فترة تأسيس الإمارة وفى غيرها من اتجاه محافظ فى الشعر . وسوف تكون لهم اتجاهات أخرى ، إن لم تظهر فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ الأندلس ، فسوف تظهر فى فترات تاليات ، نتيجة لظروف لم تتحقق بعد

(ج) السمات الخاصة :

أما السمات الخاصة التى تميز ملامح الشعر الأندلسى وتجعله ذا شخصية مستقلة ، بحيث لا نعد الأندلسيين مقلدين للمشارقة تقليداً تخفى وراءه شخصيتهم ، ولا تبدو معه خصائص مميزة لشعرهم ؛ فقد ظهر بعضها منذ فترة تأسيس الإمارة . وسيظهر البعض الآخر فى فترات أخرى . والذى يعنينا الآن هو تلك السمات الأولى التى ظهرت فى الفترة التى نسوق عنها الحديث ، وتلك السمات هى :

التجديد الموضوعى

ونعنى بذلك ، طرق بعض الموضوعات الجديدة أو تناول بعض التجارب التى لم تتناول من قبل . وأوضح مثل على هذه الخاصة . تلك القطعة الشعرية التى عالج الشاعر أبو المَخْشِيّ فيها تجربة فقدان البصر . وفيها يقول :

خضعتْ أم بناتى للعدا ... إذ قضى الله بأمر قضى
ورأت أعمى ضريراً إنما ... مشيه فى الأرض لمس بالعصا
فبكت وجداً وقالت قولة ... وهى حرّى بلغت منى المدى
ففؤادى قَرِح من قولها ... ما من الأدواء داء كالعمى
وإذا نال العمى ذا بصر ... كان حيًّا مثل ميْت قد ثوى
وكأن الناعم المسرور لم ... يك مسروراً إذا لاقى الردى

أبصرتْ مستبدلا من طرفه قائداً يسعى به حيث سعى
بالعصا إن لم يقده قائد وسؤالَ الناس يمشى إن مشى
وإذا ركبٌ دنوا كان لهم هَوْجَلا فى المهمة الخرق الصُّوَى[1]
لم يزل فى كل مخشى السُّرى يصطلى الحرب ويجتاب الدجى[2]

فهذا الموضوع جديد ، لم يطرقه شاعر قبل أبى المخشى فيما نعلم[3] . . وتأمُّل الطريقة التى عالج بها أبو المخشى هذه التجربة ، يعطينا السمة الثانية من سمات الشعر الأندلسى ، وهى :

التجويد الفنى

ونعنى بذلك محاولة الأداء بطريقة أجود مما ألف السابقون . وللأندلسيين وسائل مختلفة إلى هذا التجويد ، بعضها يتعلق بالمضمون ، وبعضها يتصل بالشكل . وهذه السمة الفنية التى بدت فى شعرهم منذ نشأته ، كانت دائماً من أوضح خصائص الشعر الأندلسى فى كل العصور ، وإن أخذت مظاهر مختلفة من عصر إلى عصر ، ومن شاعر إلى آخر .

---

(١) الهوجل : البطىء الثقيل . والمهمه : المفازة . والخرق : القفر . والصوى : جمع صوة وهى ما غلظ وارتفع عن الأرض .

(٢) وردت هذه الأبيات فى كتاب الإحاطة لابن الخطيب (وهو مخطوط بالإسكوريال رقم ١٦٧٣ ورقة ٣٥١ – ٣٥٢) .

(٣) ذكر بعض الشعراء المشارقة الأقدمين عماهم ، ولكن ذلك لا يعتبر تناولا للتجربة ولا طرقا للموضوع قبل أبى المخشى ، لأن ذكر العمى على نحو ما جاء عندهم ، إنما هو ذكر إخبارى عرضى مقتضب ، لا شىء فيه من تصوير لمحنة أو وصف لمتحن . ومن هذا قول الشاعر الجاهلى ، الأسود بن يعفر النهشلى فى قصيدته الدالية :

ومن الحوادث لا أبا لك أننى ضربت عل الأرض بالأسداد
لا أهتدى فيها لموقع تلعة بين العراق وبين أرض مراد

انظر : المفضليات للضبى ج ٢ ص ١٦ ، ١٨ .

فإذا تأملنا أبيات أبى المخشى ، وجدناه يستعمل التعبير الموحى بطريقة فنية بارعة ؛ فهو يتحدث عن محنته حين فقد بصره . ولكنه لا يعبر عن ذلك تعبيراً مباشراً أو مبالغاً ، وإنما يعبر تعبيراً إيحائيًّا بسيطاً مؤثراً غاية التأثير . وذلك حيث ذكر زوجته وخضوعها للأعداء بسبب فقدان عائلها لنور عينيه . ولم يكتف الشاعر بذكر الزوجة ، ولم يذكر اسمها كما يفعل الشعراء التقليديون غالباً ؛ وإنما ذكر أنها أم بناته . وذلك ليشير إلى أنه ذو بنات ، وأن الزوجة والبنات جميعاً قد خضعن للعدا وأصبحن فى حال من الذل تستدر الدمع . ثم ذكر فى آخر البيت أن ذلك كان منذ قضى الله بأمر فمضى هذا الأمر . فالشاعر أيضاً لجأ إلى الإيحاء بذكر القضاء ومُضىّ هذا القضاء ، وصور فى عبارته نفس السرعة التى يقع بها المقضى ، فكان موفقاً فى تصوير المحنة كما كان موفقاً فى نقل الإحساس بها .

خضعتْ أم بناتى للعدا إذ قضى الله بأمر فمضى

وراح الشاعر بعد ذلك يذكر ما كان لزوجته من بكاء ووجد ؛ وما كان من قول أطلقته وهى حرى فبلغ من الشاعر المدى ؛ حتى قرح فؤاده ، وذلك حين قالت « ما من الأدواء داء كالعمى »

ثم أخذ الشاعر يجسم محنة فقدان البصر ؛ فيجعل من يصاب بها « حيا مثل ميت قد ثوى» ويقرر أنه بمحنته ينسى كل ما كان له قبل من نعيم وسرور سابقين .

وكأن الناعم المسرور لم يك مسروراً إذا لا فى الردى

وبعد ذلك يصور الشاعر الضريرَ فى حالاته المختلفة ويبرزه فى أوضاعه المتعدد ؛ حين يكون « مستبدلا من طرفه قائداً يسعى به حيث سعى » وحين يسير « بالعصى إن لم يقده قائد » وحين يكون حاله « سؤال الناس إن مشى » بلا قائد .

ولا يكتفى الشاعر بتلك الأوصاف التى تصور الضرير حين يكون وحده، وإنما يأبى

إلا أن يصوره حين يكون فى جماعة ؛ فيجعله معوق الركب الدانى ومبطىء المشرفين على غايتهم ؛ حتى لكأنهم به فى صحراء مقفرة تعلو فيها الحجارة وتغلظ .

وإذا ركب دنوا كان لهم هو جلا فى المهمه الخرق الصوى

وأخيراً يختم الشاعر وصف حال الضرير بتصوير عالمه النفسى الملىء بالمخاوف ، المتكاثف بالظلمات ، فيجمع بذلك التصوير النفسى إلى التصوير الحسى ؛ حيث يقول :

لم يزل فى كل مخشى السرى يصطلى الحرب ويجتاب الدجى

وإذا تأملنا هذا النص نفسه من جهة ما يثيره فينا أو ينقله إلينا ؛ أدركنا السمة الثالثة من سمات الشعر الأندلسى الخاصة وهى :

التركيز العاطفى :

ونعنى بذلك أن العاطفة تتضح فى العمل الشعرى ، حتى لتوشك أن تكون أبرز عناصره . ولنترك النص السابق برغم وضوح تلك السمة فيه . ولنأخذ لذلك مثلا ، أبيات عبد الرحمن الداخل فى الحديث عن نخلة رآها بالرصافة ، وفيها يقول :

تبدَّتْ لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل
فقلت شبيهى فى التغريب والنوى وطول التنائى عن بنىَّ وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى يسح ويستمرى السماكين بالوبل[1]

فعبد الرحمن فى هذه الأبيات يتناول موضوعاً تقليدياً ، وهو الوصف ، ولكنه يلح على الجانب العاطفى فيبرزه بحيث يكاد يخفى كل ما سواه من جوانب . فهو لم يصف

(١) انظر هذه الأبيات فى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٠ ، وفى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٦ .

النخلة فى طولها ولا فى لونها ولا ثمرها ، ولم يتخيلها مارداً ذا شعر طويل ، ولا شيخاً ذا قوام هزيل ؛ وإنما ترك ذلك كله ليصف النخلة بأوصاف عاطفية ويصورها بصورة نفسية . فيرسمها وقد « تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل» ويعقد بينها وبينه شبهاً فى التغريب والنوى وطول التنائى عن البنين والأهل ، ويصفها بغربة المنشأ ومشابهة الشاعر فى المنأى البعيد والمهجر القصى . وأخيراً يدعو لها بالسقيا ، فيطلب أن تجودها غوادى المزن « فى المنتأى الذى يسح ويستمرى السماكين بالوبل» ..

وهكذا جعل من النخلة إنساناً حيًّا ، يغترب وينأى عن الوطن ويبعد عن الأهل ، وأوجد بينه وبينها مشاركة وجدانية وعلاقة نفسية جعلته يخاطبها فى حنو ويناجيها فى عطف . وكل ذلك يجعل العنصر العاطفى أبرز عناصر المضمون الشعرى لهذه الأبيات .

ومثل هذا النموذج قول عبد الرحمن أيضاً :

أيهـا الراكب الميمم أرضى ... أقْرِ من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما تراه بأرض ... وفـؤادى ومـالكيه بأرض
قـدر البين بيننـا فافترقنـا ... وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالعبـاد علينـا ... فعسى باقترابنا سوف يقضى[1]

فأوضح ما فى هذا الشعر هو عنصر العاطفة . ولم يأت ذلك من كون الموضوع موضوعاً عاطفيًّا بطبعه ؛ بل جاء من تغليب الشاعر للجانب العاطفى على كل الجوانب ، بحيث أصبح كل همه أن يوضح هذا الجانب وينقله إلى غيره ما استطاع نقلا قويًّا . ومن هنا جعل سلامه مبعوثاً من بعضه إلى بعضه الآخر ، وفسر ذلك بأنه مقسم بين الأندلس والمشرق ؛ فجسمه هنا ، وفؤاده ومالكوه هناك . ثم ذكر أن البعاد قدر بين هذا القسم

---

(١) انظر هذه الأبيات فى البيان المغرب جـ ٢ ص ٨٩ . وفى نفح الطيب جـ ٢ ص ٦٨ .

وذاك ، فكان الفراق وكان السهاد وطى الغمض عن الجفون . وقرر أخيراً أن ذلك كان قضاء الله بالبعاد ، ودعاه أن يقضى بعد ذلك باللقاء .

ولا شك أن هذه الطريقة فى تناول التجربة بالإضافة إلى صدقها وطبيعة صاحبها ، جعلت أبرز شيء فى الشعر هو عنصر العاطفة .

وهكذا نرى أن الشعر الأندلسى فى فترة تأسيس الإمارة برغم كون ملامحه العامة هى ملامح الشعر المشرقى المحافظ ؛ قد كانت له سمات خاصة ، صنعت الملامح الأولى للشعر الأندلسى المتميز ، ذلك أن تلك السمات التى بدت فى تلك الفترة من طرق بعض الموضوعات الجديدة ، وميل إلى التجويد ، وغلبة للجانب العاطفى ؛ لن تكون فقط خصائص الشعر الأندلسى التى تميزه عن نظيره المشرقى ، فهناك سمات ستظهر فى عصور تالية نتيجة لظروف مختلفة . وسوف نوضح كل ذلك فى حينه إن شاء الله . وحسبنا الآن ، تلك السمات الثلاث التى شكلت ملامح شعر الأندلس بعض التشكيل ، حتى فى تلك الفترة المبكرة من تاريخه .

(د) الشعراء :

شعراء هذه الفترة عديدون . وأكثرهم أندلسيون مولداً ومنشأ وثقافة ، وأقلهم أندلسيون حياة وتأثراً ونتاجاً ، ثم إن بعضهم قد كثرت أخباره لكونه أميراً أو حاكماً ، وقد كان التاريخ يعنى أكثر بالأمراء والحاكمين ، على أن بعضهم الآخر قد قلت أخباره لكونه لم يتمتع بإمارة ولا بحكم ، وإنما كان من أبناء الشعب ، وقد كان التاريخ — مع الأسف الشديد — لا يعنى كثيراً بأخبار أبناء الشعب .

وسوف نعرض لبعض شعراء تلك الفترة ، أو لمن وصلتنا بعض أشعارهم وأخبارهم . وليس علينا إن أوجزنا الحديث عن بعض هؤلاء الشعراء وأطنبناه فى البعض الآخر ؛ فالمسئول عن ذلك هم المؤرخون الأقدمون وعنايتهم بالحاكمين دون المحكومين .

عبد الرحمن الداخل :

هو عبد الرحمن[1] بن معاوية بن هاشم بن عبد الملك . ولد فى إحدى قرى دمشق سنة ١١٣ هـ . مات أبوه ، وتركه صغيراً فكفله جده هشام . ثم لما كان فى نحو العشرين من عمره وحلت النكبة ببنى أمية ، وقام على أنقاضهم بنو العباس ؛ كان عبد الرحمن قد فر بأهله وولده إلى ناحية الفرات ، ونزل بقرية قرب النهر واختفى بها عن أعين العباسيين . وفى ذلك وفيما كان لعبد الرحمن من فرار إلى المغرب يقول : « وإنى لجالس يوماً فى قرية على شط الفرات ، فى ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بى ، وابنى سليمان يلعب أمامى ؛ إذ دخل الصبى فزعاً باكياً فأهوى إلى حجرى ، فجعلت أدفعه لما كان بى ، ويأبى إلا التعلق بى ، وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع . فخرجت لأنظر ، فإذا بالروع قد نزل بالقرية ، ونظرت فإذا بالرايات السود عليها منحطة . وأخ لى حدث السن كان معى يشتد هارباً ويقول لى النجاة يا أخى فهذه رايات المسودة . فضربت بيدى إلى دنانير تناولتها ، ونجوت بنفسى والصبى أخى معى . وأعلمت أخواتى متجهى وأمرتهن أن يُلحقنى مولاى بدراً . وخرجت فكمنت فى موضع ناء عن القرية . فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار فلم تجد أثراً . ومضيت ولحقنى بدر فأتيت رجلا من معارفى بشط الفرات ، وأمرته أن يبتاع لى دواب وما يصلح لسفرى ، فدل علىّ عبدٌ سوء له ، فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا ، فسبحت حاثًّا لنفسى ، وسبح الغلام أخى ، فنادانا القوم من الشط : ارجعا لا بأس عليكما . فلما قطعت نصف الفرات ، قصر أخى ، فالتفت لأقوى من قلبه ، وإذ هو قد أصغى إليهم وهم يخدعونه عن نفسه ، فناديته : نقتل يا أخى ، إلىّ إلىّ . وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشى

---

(١) انظر ترجمته وبعض أخباره فى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٧١ وما بعدها ، ونفح الطيب جـ ١ ص ١٥٤ وما بعدها و جـ ٢ ص ٦٢ وما بعدها ، وأخبار مجموعة ص ٥٠ وما بعدها .

الغرق ، فاستعجل الانقلاب نحوهم . وقطعت أنا الفرات . ثم قدموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه ، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه ؛ فاحتملت فيه ثكلا ملأني مخافة . ومضيت وجهتي أحسب أني طائر ، فلجأت إلى غيضة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب عني ثم خرجت هارباً أروم المغرب ، حتى وصلت إلى إفريقية . وهناك لحق بي مولاي بدر . . .» .

وأخيراً تسلل عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، وجمع حوله أنصار بني أمية ، ونازل يوسف الفهري والي الأندلس حينئذ ، فهزمه ، ودخل قرطبة سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م)

وقد تغلب الداخل على كل ما صادفه من صعوبات في تأسيس دولة بني أمية في الأندلس ، واستخدم لذلك الذكاء والحيلة والقسوة أيضاً ؛ حتى لقد قتل بعض قرابته وخاصته في سبيل تحقيق غايته . ولقد لقبه أبو جعفر المنصور بصقر قريش . وكان لقباً يليق بعبد الرحمن الذي ظل نحو ثلاثة وثلاثين عاماً — هي مدة حكمه — في جهاد متصل وعمل دائب من أجل تحقيق هدفه الكبير . ثم مات سنة ١٧٢ هـ (٧٨٨) بعد أن حقق أكثر ما كان يريد .

وكان عبد الرحمن شاعراً مجيداً وناثراً بليغاً . وكان شعره يصوره بجوانبه المختلفة ، كإنسان وكمحارب وكسياسي . وقد أوردنا فيما سبق تلك الأبيات التي يتحدث فيها عن نخلة الرصافة ، كما أوردنا الأبيات الأخرى التي يرسل فيها سلامه من بعضه في الأندلس إلى بعضه في المشرق . وهذه الأبيات وتلك من روائع شعره الإنساني .

وهناك نماذج أخرى تمثله كمحارب وكسياسي . وكلها يأخذ طابع الفخر ، لكنه الفخر الصادق ، الذي ينطبق ما فيه من المفاخر على حقيقة المفتخر . ومن ذلك قوله ، وقد حضه بعض رفاقه على صيد غرانيق وقعت إلى جانب معسكره في إحدى غزواته :

دعنى وصيد وُقّع الغرانقِ (١)
فإن همى فى اصطياد المارق
فى نفق إن كان أو فى حالق
إذا التظت هواجر الطرائق
كان لفاعى ظل بند خافق
غنيتُ عن روض وقصر شاهق
بالقفر والإيطان (٢) فى السرادق
فقل لمن نام على النمارق
إن العلا شدت بهمٍ طارق
فاركب إليها ثبج (٣) المضائق
أولا ، فأنت أرذل الخلائق (٤)

ومن شعره الذى يصوره كذلك كسياسى وكمحارب ؛ قوله وقد بلغه أن بعض أعوانه يمن عليه ، ويزعم أنه لولاه لما صار عبد الرحمن إلى ما صار إليه من ملك ومجد :

لا يُلفَ ممتنٌ علينا قائلُ لولاى ما ملك الأنام الداخل
سعدى وحزمى والمهند والقنا ومقادر بلغت وحالٌ حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم ألا يغفلوا أيروم تدبير البرية غافل ؟!
ويقول قوم سعده لا عقله خير السعادة ما حماها العاقل

---

(١) جمع غرنوق ، بضم الغين والنون ، وهو طائر مائى ، أو الكركى .
(٢) الإيطان : مصدر أوطن : أى أقام .
(٣) الثبج : وسط الشىء ومعظمه .
(٤) وردت هذه الأبيات فى : أخبار مجموعة ص ١١٧ — ١١٨ .

obeikandl.com

أبنى أمية قد جبرنا صدعكم بالغـرب رغمـا والسعود قبائل
ما دام من نسلى إمام قائم فالملك فيكم ثابت متأصـل[١]

ومما يصور قصته فى كفاحه المرير وجهاده الطويل ، وإحسانه إلى بنى أمية ، قوله وقد وفد عليه بعض أقربائه فنال عطاء لكنه استقله ، واستطال على الداخل بدالة القرابة :

شـتان مَن قام ذا امتعاض مذ قال مـا قال واضمحلا
ومن غـدا مصلتًا لعـزم مجـرداً للعـداة نصـلا
فجاب قفـراً وشق بحـراً ولم يكن فى الأنـام كَلا[٢]
فشـاد ملكا وشـاد عـزًّا ومنـبراً للخطـاب فصـلا
وجنَّـد الجنـد حين أودى ومصَّر المصر حين أخـلى
ثم دعـا أهـله جميعًا حيث انتـأوا أن هَـلم أهلا
فجـاء هـذا طـريد جوع شـديد روع يخـاف قتـلا
فنـال أمنًا ونال شِبْعًا[٣] ونال مـالا ونال أهـلا
ألم يكن حـق ذا عـلى ذا أعظم من منعم ومولى[٤]

وعبد الرحمن الداخل وإن كان مشرقى المولد والنشأة ، يعتبر أندلسى الحياة والشعر ؛ وذلك لأنه وفد على الأندلس فى شبابه الباكر ، وتأثر أكثر ما تأثر بما كان فى الأندلس من حياة طويلة عريضة مزدحمة بالأحداث والتجارب ، حتى كان كل ما أثر عنه من شعر قد قيل فى الأندلس ، ومن هنا جاء شعره جميعاً مرتبطاً بالأندلس متأثراً بها .

---

(١) وردت هذه الأبيات فى نفح الطيب ص ٧٠ جـ ٢
(٢) الكل : العيل والثقيل ومن لا خير فيه .
(٣) الشبع بسكون الباء كالشبع بفتحها .
(٤) وردت هذه الأبيات بصور مختلفة فى نفح الطيب وأخبار مجموعة . وقد أثبتنا الأبيات الستة الأولى من نفح الطيب جـ ٢ ص ٧١ وأثبتنا الثلاثة الباقية من رواية أخرى فى المصدر نفسه ص ٨٦ .

وإذا استعرضنا تلك النماذج التى بقيت من شعر عبد الرحمن الداخل ، وجدناها قسمة بين الحنين والفخر ، أما الحنين فصدره تعلق قلب الشاعر بوطنه الأول فى المشرق ، حيث ولد ونشأ وكانت لآبائه دولة كبيرة . وأما الفخر فصدره بطولة الشاعر وكفاحه ومغامراته وانتصاراته ؛ فقد استطاع وهو شاب أن يؤسس دولة لبنى أمية تعوضهم دولتهم التى فقدوا . ومن هنا كان شعر الداخل يتسم بالصدق ؛ لأنه يعبر عن تجارب قد عاشها الشاعر وانفعل بها . حتى الفخر الذى من شأنه أن يكون مثقلاً بالمبالغات والأكاذيب ، قد كان من عبد الرحمن الداخل فخراً محتملا لا تثقله مبالغات أو أكاذيب ؛ لأنه يصور حقيقة الرجل وسيرته .

وهكذا جاء شعر الداخل من حيث الموضوعات والتجارب مصوراً فى صدق لجوانب شخصية الرجل ، وهى جوانب ثلاثة ، جانب إنسانى يحب ويحن ويرق ويتألم ويبكى ، وجانب سياسى يدبر ويحتال ويحزم ويعزم ، وجانب عسكرى يقسو ويعنف ويضرب ويفتك

ويلاحظ كذلك على شعر الداخل أنه يتسم إلى جانب صدق التجارب بفنية التعبير ، وتتمثل تلك الفنية فى طريقة الشاعر التى يتناول بها الموضوعات ؛ فهو فى حديثه عن بعض الأشياء لا يصفها من الخارج ، وإنما يتعمقها ويعيش معها ، ويخلع عليها حياة ترتبط بحياته ، ويبث فيها عواطف تشارك عواطفه . وقد رأينا مثلا من ذلك فى حديثه عن النخلة . وهو فى طريقة تناوله للموضوعات يعتمد على الوجدان فى الموضوع الذى أساسه الوجدان ، وعلى الإقناع فى الموضوع الذى أساسه الفكر . وقد رأينا كيف اعتمد على الوجدان فى حديثه عن النخلة وفى تحيته إلى أحبائه فى المشرق . ولنتأمل أبياته فى الرد على من كان يمن عليه من أعوانه ، لنرى كيف اعتمد على الإقناع فيما أساسه الفكر ، وكيف وضح مثلا أن سبب مجده ليس هو هذا الذى يمن عليه ، وإنما هو السعد والسيف

والرمح والقدَر وسنة الله فى تحـول الأحوال وتداول الحكام ؛ ثم يمضى الشاعر فى الإقناع بفكرة كفاءته ومقدرته على صيانة الملك ، فيبين أن قول آخرين بأن السعد وحده هو الذى وصله إلى ما وصل إليه ، وليس العقل والتدبير ؛ إنما هو قول باطل يرد عليه ما كان من حمايته للملك ، تلك الحماية التى لا تكون إلا بالعقل والحكمة والكفاءة ، وهكذا يمضى فى الاعتماد على الإقناع فى مثل هذا الموضوع الفكرى ، كما مضى فى الاعتماد على الوجدان فيما سبق من موضوعات عاطفية .

ويلاحظ كذلك على شعر الداخل ، أنه يتسم غالباً بسمة التركيز العاطفى التى أسلفنا عنها الحديث ؛ فهو فيما يتناول من موضوعات يركز على العاطفة محاولا التأثير بها وفيها ما أمكن . وتستوى فى ذلك الموضوعات التى أساسها العاطفة والموضوعات التى أساسها الفكر . وقد اتضح تركيزه العاطفى فى حديثه عن النخلة وتحيته لأحبابه فى المشرق . فإذا ما تأملنا أبياته الأخرى التى أساسها الفكر والاعتماد على الإقناع ، وهى أبياته فى الرد على من يمن عليه ؛ وجدنا العاطفة كذلك تشيع فيها جوًّا دافئاً يخفف من برودة الفخر ويصقل من خشونته . فالشاعر فى تلك الأبيات يذكر الحظ والقدر وتحول الأحوال ، ويصور الحكام نجوماً تتعاقب ، فيشرق نجم ليغيب آخر . وكل ذلك مما يشيع فى القصيدة هذا الجو العاطفى الدافئ الرقيق ، ويبعدها عن أن تكون مجرد حجج وبراهين ووسائل إقناع .

وأخيراً يلاحظ على شعر الداخل أن لغته تميل غالباً إلى السلاسة والرقة ، وتجانب التعقيد والغموض والغريب .

أبو المخشيّ :

هو عاصم بن زيد العبادى ، ويتصل نسبه بالعباد نصارى الحيرة[١]. وكان والده من جند الشام الذين وفدوا على الأندلس فى فترة الولاة ، وكان قد نزل مع جند دمشق بمنطقة إلبيرة . فنشأ أبو المخشى ببلدة شوش ، واتجه إلى قرض الشعر ، وما زال ينبغ فيه حتى صار من ألمع شعراء عصره .

ولكن أبا المخشى كان ذا بذاء زائد يتسرع به من لا يوافقه من الناس، وكان ذا هجاء يمس الحرم ويتناول الأعراض أحياناً . وكان الشعراء بدورهم يجدون فى أصله النصرانى البعيد مغمزاً يعيرونه به[٢] .

وكان أول الأمر كثير المدح لسليمان بن عبد الرحمن الداخل ، حتى ليوشك أن ينقطع له . وقد ذكر فى إحدى مدائحه بيتاً من الشعر اعتبره هشام بن عبد الرحمن الداخل تعريضاً به . وهو هذا البيت :

وليسوا مثل من إن سيل عرفا   يقلّب مقلة فيها اعورار [٣]

وسبب اعتبار هذا البيت تعريضاً بهشام . أنه كان أحول ، فاغتاظ من أبى المخشى ، وخاصة لما عرف عنه من هجائه الذى يمس الحرم ، ولما اشتهر به من مدح سليمان دون هشام ، فاستدعاه إلى مدينة ماردة — وكان هشام حينئذ واليها فى حياة أبيه — فخرج إليه أبو المخشى من قرطبة طامعاً فى عطائه . فلما دخل عليه قال له : « يا أبا المخشى ،

---

(١) وردت أخباره فى : المغرب لابن سعيد جـ ٢ ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، وجذوة المقتبس للحميدى ص ٣٧٧ ، وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٣٥ ، ٣٦ ، والإحاطة لابن الخطيب (مخطوطة بالإسكوريال رقم ١٦٧٣ ورقة ٣٥١ ، ٣٥٢) .

(٢) انظر حكاية له مع شاعر يسمى ابن هبيرة فى : المغرب جـ ٢ ص ١٢٤ .

(٣) فى المغرب : « وليس كثل من إن سيم عرفا » جـ ٢ ص ١٢٤ .

إن المرأة الصالحة التى هوت ابنها ، فقذفتها فأفحشت فيها ، قد أخلصت دعاءها لله فى أن ينتقم لها منك ، فاستجاب رجاءها ، وسلطنى لأقتص لها» ثم أمر به فقطع بعض لسانه وسملت عيناه . وقد عولج من جراحه ، ولكنه عاش بعد ذلك ممثلا به . فأما لسانه فانجبر بعد وقت إلا قليلا ، فاقتدر على الكلام إلا تلعثما كان يعترضه ، وأما العمى فقد استمر به . فعظم مصابه وكثرت شكواه فى أشعاره . ولما بلغ عبد الرحمن الداخل صنيع ابنه هشام بأبى المخشى ، ساءه الأمر وكتب إلى ابنه يعنفه . ثم قدم الشاعر على عبد الرحمن وأنشده قصيدته التى صدّرها بتصوير محنة العمى ، فرق له الأمير وأجازه بألفى دينار وضاعف ديته . ولما صار الأمر إلى هشام بعد أبيه استشعر الندم مما أصاب الشاعر على يديه ، فترضاه وضاعف ديته كذلك .

وقد اتخذ الشاعر صبيًّا كمنشد لشعره بعد أن أعجزته مأساته عن الإنشاد الفصيح .

وعُمِّر أبو المخشى بعد محنته حتى لحق دولة عبد الرحمن الأوسط ، وتوفى قريباً من هذا العهد . وذكر ابن حيان أنه مات فى عهد الحكم الربضى [1] .

وقد ذكر الرازى أن أبا المخشى « كان شاعر الأندلس فى حينه ، وأنه كان صاحب المعانى الحسنة والنوادر الكثيرة والقول الغزير » .

ولكن برغم ماعرف عنه من غزارة القول ، لم يصلنا من شعره إلا القليل ، الذى منه تلك الأبيات التى يتحدث فيها عن محنة العمى ، والتى يجعلها مقدمة لقصيدة له فى مدح عبد الرحمن الداخل . وقد مضت تلك المقدمة وبعض أبيات أخرى من القصيدة فى غير هذا المكان .

ومن القليل الذى بقى من شعره أيضاً ، تلك الأبيات التى يمجد فيها انتصار الداخل

---

(١) المغرب جـ ٢ ص ١٢٤ .

فى بعض المعارك ، ويمدحه ويشيد بابنه سليمان بن عبد الرحمن ،وقد مضت تلك الأبيات كذلك فى موضع آخر .

ومن أروع شعره الذى وصلنا هذان البيتان اللذان يصوران الهم تصويراً دقيقاً :

وهمٍّ ضافنى فى جوف ليل كلا موجيهما عندى كبيرُ
فبتنا والقلوب معلقات وأجنحة الرياح بنا تطير[1]

ثم هذا البيت الذى يصور العيش الممهد والحياة فى رفعة وحماية أدق تصوير :

هُمَا مهدا لى العيش حتى كأننى خَفِيَّةُ زِفٍّ بين قادمتى نسرِ[2]

وأخيراً هذان البيتان اللذان قالهما فى آخر حياته ، وفيهما يصور عجزه بعد مأساته وشيخوخته وحياته عالة على زوجته ، تلك العاجزة بدورها ، الباكية لما كان من أمر زوجها وأمرها :

أمُّ بنيَّاتى الضعيف حَوِيلها تعول امرأ مثلى وكان يعولها[3]
إذا ذكرتْ ما حال بينى وبينها بكت تستقيل الدهر ما لا يقيلها

ومما ورد هنا من شعر لأبى المخشى ، ومما ورد له فى مواضع أخرى ، ثم مما ذكروا عنه من أخبار ، نستطيع أن نقول : إن أبا المخشى كان يمثل الشعر الأندلسى فى فترة تأسيس الإمارة أصدق تمثيل ؛ فهو يمثله فى سيره فى هذا الاتجاه المحافظ ذى الملامح البدوية ، وهو يمثله فى ظهور تلك السمات الأندلسية الخاصة من تجديد فى بعض الموضوعات ومن تغليب لعنصر العاطفة ، ومن تجويد لطريقة الأداء ؛ فقد وجدنا أبا المخشى يعالج

---

(١) ورد هذا البيتان فى جذوة المقتبس للحميدى ص ٣٨٧ . وضافه : نزل عليه ضيفاً .

(٢) ورد هذا البيت فى المصدر السابق .

(٣) ورد هذان البيتان فى : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٣٦ . والحويل : الحول والقدرة .

غالباً الموضوعات التقليدية وخاصة المدح والهجاء ، لكنا رأيناه يعالج تجربة جديدة ، وهى تجربة فقدان البصر . وقد وجدناه كذلك يؤثر المنهج التقليدى فى بناء القصيدة حيث يبدأ مدحه مثلا بوصف الرحلة وإجهاد المطايا ، وحيث يلتمس صوره ومعانيه ولغته غالباً فى عالم البادية ، وما عاشت عليه من أفكار وقيم ووسائل تعبير ؛ ولكنا رأيناه مع ذلك مجوداً ما أمكن ؛ فهو يحاول أن يأتى بشىء أحسن مما أتى به الأقدمون ، برغم تحركه غالباً فى فلكهم وسيره فى اتجاههم . فامرؤ القيس يقول مثلا فى ليل الهموم :

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهمـــوم ليبتـــلى
فقلت له لما تمطى بصلبـــه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

ويقول أبو الخشى :

وهمٌّ ضافنى فى جوف ليل كلا مَوجيهما عنـــدى كبيرُ
فبتنا والقـــلوب معلقـــات وأجنحـــة الرياح بنـــا تطير

فهو قد ينظر إلى صورة ليل امرئ القيس من بعيد ، لكنه يؤلف صورة أكثر حياة وتآزر عناصر من صورة ليل امرئ القيس . وذلك أن الليل عند امرئ القيس موج بحر يرخى سدوله بأنواع الهموم ، وهو فى الوقت نفسه جمل يتمطى بصلبه ويردف أعجازاً وينوء بكلكل ، وليس هناك ترابط بين البحر والجمل . أما الليل عند أبى الخشى ، فهو بحر ذو موج عظيم ، يحوى همًّا فى جوفه ، هو بدوره بحر ذو موج عظيم ، وبين هذين الموجين تظل القلوب معلقة من الفزع ، وكأن أجنحة الرياح تطير بالمهموم .

ومن أوضح أمثلة هذا التجويد فى شعر أبى الخشى كذلك قوله :

هُمَا مهدا لى العيش حتى كأننى خَفِيَّةٌ زِفٌّ بين قادمتى نسرِ

فلا يخفى ما فى هذه الصورة من الدقة والجدة والشمول والإيحاء ، بحيث تفوق

كثيراً ماقيلَ من قبل فى تمهيد العيش والحماية . فاختيار الشاعر لخفية الزف بخاصة — وهى الريشة الصغيرة من ريش الخوافى التى فى مؤخر الجناح — يوحى بالبساطة والخفة والاحتياج الشديد إلى حماية . واختيار القوادم للحماية — وهى الريشات القوية التى تكون فى مقدم الجناح — يوحى بالقوة والمنعة . ثم اختيار النسر بالذات لتكون قوادم جناحه هى التى تحمى تلك الريشة الصغيرة ، يوحى بالرفعة والغلبة . وكل هذا مما يشهد بدقة الشاعر وتجويده الفنى ؛ فقد قدم صورة حية فيها مانال من الحماية وتمهيد العيش ، وفيها ما أحرز من الارتفاع فى بساطة ويسر ، وفيها بعد ذلك تمجيد من قدّم هذا المعروف ، والإيحاء بقوته وعلو منزلته وشدة بأسه .

وهكذا نرى أن أبا الخشى يمثل الشعر الأندلسى فى فترة تأسيس الإمارة أصدق تمثيل ، من حيث اتضاح السمات الأندلسية الخاصة فى شعره ، برغم سيره فى الاتجاه المشرقى المحافظ ، الذى كان مسيطراً على الحياة الشعرية فى الأندلس حينئذ .

الحكم بن هشام :

هو أبو العاصى ، الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ؛ ويلقب بالرَّبَضِىّ[1] . وقد ولد سنة ١٥٤هـ . ونشأ فى بيت الإمارة الأموية بالأندلس . وولى الأمر بعد موت أبيه هشام سنة ١٨٠ هـ وهو فى نحو الخامسة والعشرين من عمره .

وقد عُرف بكثير من التحرر الذى أسخط عليه الفقهاء وأبعده كثيراً عن قلوب الشعب ؛ فقد كان ميالا إلى اللهو ، مولعاً كثيراً بالصيد ، يؤثر الندماء والشعراء على الفقهاء والعلماء ؛ فآنسوا تصدع مركزهم الذى كان مدعماً فى عهد أبيه هشام ، فحنقوا

---

(١) راجع ترجمته وبعض أخباره فى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٩١ وما بعدها ، ونفح الطيب جـ ١ ص ١٥٩ وما بعدها ، والمعجب صفحة ١٢ وما بعدها ، وأخبار مجموعة صفحة ١٢٤ وما بعدها .

عليه وألبوا العامة ضده . وكان أكثر الناس تأثراً بهذه الإثارة هؤلاء المولدون الذين يسكنون الرَّبض ، والذين عرفوا بثورتهم الجامحة التى كادت تقضى على الحكم وربما على الإمارة الأموية كذلك .

وقضى الحكم كجده شطراً كبيراً من حكمه فى قيادة الجيوش ومنازلة المتمردين . وكان أخطر ما عانى ثورة الربض السالفة الذكر .

وقد كان الحكم فارساً شجاعاً ومغامراً باسلا . حكوا أنه لما رأى جموع الثائرين تحيط بقصره يوم الربض ، دعا بغالية فتغلل بها ، وبمسك فذره على شعره ؛ فقال له أحد فتيانه : أهذا يوم طيب يا سيدى ؟ ! فانتهره وقال : هذا يوم وطنت فيه نفسى على الموت أو الظفر بعدوى ، فأردت أن يُعرف رأس الحكم من بين رءوس من يُقتل معه[1] .

وكان الحكم أديباً مجيداً ، شاعراً وناثراً . وقد سجل أدبه بعض ما كان له من أحداث .

وشعره يتردد بين الغزل والحماسة ، ويصوره بهذين الجانبين اللذين يؤلفان شخصيته كفارس ؛ فهو فى غزله رقيق لين خاضع متذلل ، وهو فى حماسته عنيف أبيٌّ متجبر ، شأنه فى ذلك شأن كل الفرسان ، الذين يعتبر الخضوع للأحباب والقسوة على الأعداء ، من أهم معالم شخصيتهم .

ومن غزل الحكم الذى يمثل خضوعه فى الحب ، قوله عن نفسه :

ظلَّ من فرط حبه مملوكا ... ولقد كان قبل ذاك مليكا
إن بكى أو شكى الهوى زيد ظلماً ... وبعاداً يدنى حماماً وشيكا
تركته جآذر القصر صباً ... مستهاماً على الصعيد تريكا

---

(١) انظر : أخبار مجموعة صفحة ١٣١ .

يجعل الخد راضياً فوق تُرب للذى يرتضى الحرير أريكا
هكذا يحسن التذلل بالحر إذا كان فى الهوى مملوكا[١]

ومن هذا اللون قوله أيضاً :

قضبٌ من البان ماست فوق كثبان ولَّين عنى وقد أزمعن هجرانى
ملكتنى مَلِكا ذلت عزائمه فى الحب ذل أسير موثق عان
مَنْ لى بمغتصبات الروح من بدنى يغصبننى فى الهوى عزى وسلطانى[٢]

أما شعره الحماسى الذى يمثل الجانب العنيف من شخصيته ، فقد مضت بعض نماذجه . فلا حاجة إلى إعادتها هنا .

والذى تدل عليه القطع الباقية من شعر الحكم ، هو أن شعره كان — إلى جانب تردده بين الغزل والحماسة — يميل إلى شىء من المبالغة ، التى مبعثها شخصية الشاعر وطبعه الفروسى ؛ فهو يبالغ فى الضعف حين يتغزل ، ويبالغ فى القوة حين يتحمس ، وقد تُباعد تلك المبالغة بين الشعر والصدق أحياناً .

ويلاحظ بعد ذلك على شعر الحكم — كما تدل تلك النماذج التى بقيت — أنه كان على حظ غير قليل من الجودة ؛ فقيه يتلاءم الأسلوب مع الموضوع وتنسجم التجربة مع التعبير ، بشكل يدعو إلى الإعجاب . فإذا ما رجعنا إلى نماذجه الغزلية ، وجدنا الرقة فى الألفاظ والسلاسة فى الأسلوب والرشاقة فى الموسيقى ، وإذا ما رجعنا إلى نماذجه الحماسية ، وجدنا العنف فى الألفاظ والوعورة فى الأسلوب والصخب فى الموسيقى .

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١١٩ ، ١٢٠ .
(٢) وردت هذه الأبيات فى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١١٨ ، ١١٩ .

عباس بن ناصح :

هو أبو المعرّى عباس بن ناصح الثقفى ، من أهل الجزيرة الخضراء[١] وكان قد رحل مع أبيه إلى مصر وتردد على الحجاز والعراق ، ولقى أئمة العلم فى تلك البلادْ ، فكان على حظ كبير من العلم بالفقه والرواية للشعر . ولما عاد إلى الأندلس ولاه الحَكَمُ قضاء الجزيرة الخضراء مع شذونة .

وكان عباس بن ناصح يتردد على قرطبة فيأخذ عنه أدباؤها ، وتدور بينه وبينهم أحياناً محاورات أدبية طريفة ، يمكن أن تعتبر المحاولات الأولى للنقد الأدبى فى الأندلس .

وقد اشتهر ابن ناصح بالشعر شهرة غلبت على شهرته كعالم ومؤدب ، وخلف ديوان شعر كان موضع عناية الأندلسيين ودراستهم . ولكن هذا الديوان قد ضاع ولم يبق من شعره إلا القليل . والذى يدل عليه هذا القليل ، بالإضافه إلى ما حكى عن الشاعر من أخبار ، هو أن شعر هذا الشاعر كان يتحرك غالباً فى دوائر المدح والحماسة والفخر ، كما كان أحياناً يتناول الزهد . فمن أمثلة مدحه قوله فى الحَكَم الربضى ،وكان قد أغاث الناس فى عام مجاعة :

نَكِدَ الزمانُ فآمنتْ أيامه أن لن يكون بعصره عسر
ظَلَع[٢] الزمان بأزمة فجلى له تلك الكريمة جودُه الغمر[٣]

ومن أمثلة شعره الحماسى، قوله مستحثًّا للحكم على إغاثة منطقة وادى الحجارة وكان الشاعر قد نزل بها فسمع امرأة تشكو إهمال الحكم وقسوة الأعداء .

---

(١) اقرأ بعض أخباره فى بغية المتلمس للضبى صفحة ٢٧٦ ، وفى نفح الطيب جـ١ صفحة ٤٤٥ ، وفى بغية الوعاة للسيوطى صفحة ٢٧٦ ، وفى المغرب لابن سعيد صفحة ٢٥٣ .

(٢) ظلع : ضاق .

(٣) ورد هذان البيتان فى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦١ .

تململتُ فى وادى الحجارة مسهداً أراعى نجومًا مـا يردن تغـيرا
إليك أبا العاصى نضيتُ مطيّتى تسـير بهم ســاريًا ومهجّرا
تداركْ نساء العالمين بنَصرة فإنك أهل أن تغيث وتنصرا(١)

ومن أمثلة شعره الزهدى قوله :

ما خيرُ مدة عيش المرء لو جُعلت كمدة الدهر والأيام تفنيها
فارغب بنفسك أن ترضى بغير رضى وابتع نجاتك بالدنيا وما فيها(٢)

كذلك يدل القليل الباقى من شعر ابن ناصح ، بالإضافة إلى ما روى عنه من أخبار ، على أن شعره كان غالباً ذا سمات بدوية واضحة ، وأنه كان قليل الصقل كثير الخشونة ؛ ويتمثل ذلك فى سذاجة بعض الأفكار ، واهتزاز بعض الصور ، وقلق بعض الألفاظ . ولعل مما يرجح هذا التصور من بداوة شعر ابن ناصح الواضحة ، ما يُحكى من أنه وفد مرة على قرطبة وأسمع الشعراء قصيدة له مطلعها :

لعمرك ما البلوى بعار ولا العدمْ إذا المرء لم يعدم تقى الله والكرمْ

فلما ورد فى تلك القصيدة بيت يقول فيه :

تجاف عن الدنيا فما لمعجّز ولا عاجز إلا الذى خُطّ بالقلم

قال له يحيى الغزّال — وكان إذ ذاك ناشئاً فى الشعر — : أيها الشيخ وما يصنع مفعّل مع فاعل ؟ (يعنى معجز مع عاجز) فقال له ابن ناصح : كيف تقول أنت ؟ فقال أقول :

تجاف عن الدنيا فليس لعاجز ولا حازم إلا الذى خُط بالقلم

فقال له عباس : والله يا بنى لقد طلبها عمك فما وجدها .

---

(١) وردت هذه الأبيات فى المصدر السابق ١٦٠ .
(٢) ورد هذان البيتان فى بغية الملتمس ص ٢٧٦ .

ثم ما يروى من أنه أنشد مرة قصيدة جاء فيها قوله :

بقَرتُ بطونَ الشعر فاستفرغ الحشا بكفى حتى آب خاويه من بَقْرى

فقال له شاعر يسمى بكر بن عيسى : « أما والله — يا أبا على — لئن كنت بقرتَ الحشا ، لقد وسَّخت يديك ببقره ، وملأتها بدمه . وخبثت نفسك بنتنه ، وخشمت أنفك بعرفه » فاستحيا عباس وأفحم عن الجواب[١] .

حسانة التميمية :

هى حسانة بنت أبى الحسين الشاعر ، كانت من أهل إلبيرة[٢] ، وقد تأدبت على أبيها الذى كان أيضاً من الشعراء ، ولما مات لجأت إلى الحكم أمير الأندلس حينئذ ، وكانت وسيلتها إليه تلك الأبيات :

إنى إليك أبا العاصى موجَّعة[٣] أبا الحُسين ، سقته الواكفَ الديمُ
قد كنت أرتع فى نعمـاه عاكفة فاليوم آوى إلى نعماك يا حكم
أنت الإمام الذى انقاد الأنام له وملكتْه مقاليد النُّهى الأمم
لا شيء أخشى إذا ما كنت لى كنفاً آوى إليه ولا يعرو لى العـدم
لا زلتَ بالعزة القعساء[٤] مرتديـاً حتى تذل إليك العرب والعجم[٥]

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنه ، وأمر لها بإجراء راتب ، وكتب إلى عامله على إلبيرة فجهزها بجهاز حسن . غير أنه لما مات الحكم نالها بعض الضر من عامل

---

(١) وردت هذه الحكاية والتى قبلها فى النفح ج ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٢) انظر بعض أخبارها فى : نفح الطيب ج ١ ص ٤٨٨ .
(٣) موجعة : ناعية .
(٤) القعساء : الثابتة .
(٥) وردت هذه الأبيات فى : نفح الطيب ج ٢ ص ٤٢٨ — ٤٢٩ .

بلدها جابر بن لبيد ، الذى لم يحرر لها أملاكها . ولم ينفذ ما خطه الحكم لها بيده فى هذا الشأن . فجاءت إلى الأمير الجديد عبد الرحمن الأوسط وأنشدته قصيدة منها :

إلى ذى الندى والمجد سارت ركائبى ... على شَحَطٍ [١] تصلى بنار الهواجرِ
ليجبر صدعى إنه خير جابر ... ويمنعنى من ذى الظلامة جابر
فإنى وأيتـــامى بقبضة كفـــه ... كذى ريش اضحى فى مخالب كاسر
جدير لمثلى أن يقال [٢] مروءة ... لموت أبى العاصى الذى كان ناصرى
سقاه الحيا لو كان حيًّا لما اعتدى ... علىّ زمان باطش بطش قادر
أيمحو الذى خطته يمناه جابرٌ ... لقد سام بالأملاك إحدى الكبائر [٣]

فلما فرغت من قصيدتها رق لها . فعزل الوالى وأقرها على أملاكها ، وأمر لها بجائزة ، فانصرفت وبعثت إليه بقصيدة منها :

ابنُ الهشاميْن خير الناس مأثرة ... وخير منتجَع يومًا لـــرُوَّادِ
إن هزَّ يوم الوغى أثناء صَعْدته [٤] ... روَّى أنابيبها من صرف فرصاد [٥]
قل للإمام : أيا خير الورى نسبًا ... مقـــابلا بين آباء وأجـــداد
جوَّدْتَ طبعى ولم ترْض الظلامة لى ... فهـــاك فضلَ ثناءٍ رائح غاد
فإنْ أقمتُ فنى نعمـــاك عاكفة ... وإن رحلت فقد زودتنى زادى [٦]

وحسانة — فيما نعلم — أولى الشواعر الأندلسيات ، وأسبقهن إلى قرض الشعر .

---

(١) الشحط : البعد .
(٢) يقال : من أقال عثرته .
(٣) وردت هذه الأبيات فى : نفح الطيب جـ ٢ صفحة ٤٣٨ .
(٤) الصعدة : القناة المستوية .
(٥) الفرصاد صبغ أحمر . والمراد الدم .
(٦) راجع هذه الأبيات فى : نفح الطيب جـ ١ صفحة ٤٢٨ — ٤٢٩ .

وشعرها — كما يبدو — مزيج من الرثاء والشكوى والمدح وطلب العون ، وهو على جانب كبير من النضج الفنى ، وفيه بعض تلك السمات الأندلسية المميزة التى سبق أن أشرنا إليها فى غير هذا المكان ؛ فهو شعر يتسم بالتجويد الفنى وبالتركيز العاطفى . ولنتأمل أبياتها الأولى التى تقدمت بها إلى الحكم بعد موت أبيها . فسوف نحسها تفيض بالعاطفة الحارة الصادقة . ولننظر أبياتها الأخرى التى أنشدتها عبد الرحمن الأوسط ، فسوف نراها على حظ كبير من التجويد الفنى ؛ الذى لا يأتى مصادفة ولا تندُّ به طبيعة شاعر عادى . انظر إلى استخدامها للألفاظ . ولعبها بمادة « جابر » دون تصنع أو افتعال فى قولها :

ليجبر صدعى إنه خير جابر ويمنعنى من ذى الظلامة جابر

وانظر إلى الصورة الرائعة التى كأنها لوحة فنية تمثل العدوان والظلم والقهر . فى قولها :

فإنى وأيتـــامى بقبضة كفة كذى ريش اضحى[1] فى مخالب كاسر

وشعر حسانة بعد ذلك يتسم بالأصالة والصدق ؛ ففيه كثير من طبيعة المرأة ، فى ضعفها وحاجتها إلى الحماية وبحثها عن الكنف ، وفزعها من القهر ، وفرط إحساسها بالعدوان ، وصراخها فى طلب الغوث وجبر الصدع وإقالة العثرة .

هذه طائفة من شعراء تلك الفترة ، قد أفردناهم بالحديث لما بقى من أخبارهم وأشعارهم . وهناك آخرون غير هؤلاء ، لا يكفى ما ذكر عنهم من أخبار أو ما بقى لهم من شعر للحديث عنهم والتعريف بهم . ومن هؤلاء : بكر بن عيسى ، وأبو الحسين التميمى ، وغريب الطليطلى ، وابن هبيرة .

---

(١) يقرأ الفعل أضحى هنا بهمزة وصل ليصح الوزن .

ثانياً – النثر :

إذا صح أن ينقسم النثر إلى نثر تأليفى ونثر خالص ، على أن يراد بالتأليفى ذلك النثر الذى تصاغ به المعارف الإنسانية المؤلفة فى أسلوب أدبى ، وعلى أن يراد بالخالص ، ذلك النثر الذى لا يراد به التعبير عن تلك المعارف الإنسانية المؤلفة ، وإنما يراد ما سوى المعارف ، كنقل عاطفة أو تصوير تجربة أو إيصال فكرة وما إلى ذلك ؛ أقول إذا صح ذلك التقسيم ، أمكن القول بأن النثر الأندلسى كان فى فترة تأسيس الإمارة نثراً خالصاً ؛ حيث كانت الأندلس حتى ذلك الحين لا تعرف النثر التأليفى ؛ لأنه يحتاج إلى مستوى ثقافى لم تكن الأندلس قد وصلته بعد .

وكان هذا النوع من النثر الخالص ، لا يعرف كذلك تلك الفروع الراقية التى نشأت فيما بعد كالفرع القصصى مثلا ، وإنما كان مقصوراً على تلك الفروع التقليدية ، كالخطب والرسائل والوصايا والمحاورات ، وما أشبه ذلك بما عرف منذ العصر الجاهلى إلى الأموى . وكان اقتصار النثر الأندلسى على تلك الفروع أمراً طبيعيًّا فى تلك الفترة الباكرة من تاريخ الأندلس ؛ فهى الفروع التى كانت تلائم حياة الأندلسيين وتتناسب مع ظروفهم السياسية والاجتماعية والثقافية ، وهى الفروع التى كانت مألوفة فى المشرق فى تلك الآونة . وقد كان المشرق فى ذلك الحين هو المصدر الأول للاتجاهات الثقافية والأدبية .

هذا ما يتعلق بنثر الأندلس فى تلك الفترة من حيث نوعه وفروعه . أما من حيث أسلوبه فيلاحظ بناء على ما بين أيدينا من نصوص ، أنه كان لا يزال نثراً ذا تقاليد عربية خالصة ؛ فهو يتسم بالجزالة المسببة أحياناً لغرابة بعض الألفاظ . كذلك كان يتسم بالجودة المعتمدة على الطبع أولا والمستخدمة لبعض المحسنات ثانياً . على أن تلك المحسنات وفى مقدمتها السجع ، كانت تأتى بين الحين والحين دون تكلف أو افتعال . كذلك

كان النثر يتسم بالبساطة والتعبير المباشر ، والابتداء بالموضوع دون مقدمة أو تمهيد . وأخيراً كان يتسم بمراعاة المقامات ، فهو موجز فى مواطن الإيجاز ، كخطب الحرب ورسائل الإنذار ، وهو مطنب نوعاً فى الوصايا والمنشورات وما أشبه ذلك مما يتطلب بسط القول .

وهكذا نجد النثر الأندلسى فى تلك الفترة مشابهاً إلى حد كبير للنثر الذى كان معروفاً فى المشرق أيام الدولة الأموية ، حتى ليمكن أن يقال : إنه كان كالشعر يسير على الأسلوب الأدبى المحافظ clasico . وإذا أمكن أن يميز الشعر الأندلسى — برغم محافظته — ببعض الخصائص ، فربما كان من المتعذر تمييز خصائص للنثر ، تفرق بينه وبين النثر المشرقى ولو بغض التفريق . ولعل السبب فى ذلك هو قلة المأثور من نثر تلك الفترة . ولعلنا لو عثرنا على نصوص أكثر ، نستطيع أن نلمح بعض خصائص النثر الأندلسى التى تميزه من النثر المشرقى فى تلك الحقبة من تاريخه .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان لتلك الفترة نثر تقليدى كما سبق أن قررنا ، وكان لها ناثرون عديدون مثل : فطيس بن عيسى ، وخطاب بن يزيد ، اللذين كانا كاتبين لهشام بن عبد الرحمن ثم لابنه الحكم ، ومثل حجاج العقيلى ، الذى كان كاتباً للحكم[1] ، ومثل الداخل ، والربضى من أمراء تلك الفترة ؛ فقد كان الأول خطيباً وكاتباً ، وكان الثانى كاتباً وموصياً .

وقد حفظت لنا بعض المراجع نماذج نثرية لتلك الفترة . ولعل من الخير أن نعرض طرفاً من تلك النماذج ، حتى يتضح ما سبق أن قررناه عن حال النثر من حيث فروعه ومن حيث أسلوبه .

فمن أمثلة الخطب ، ما قاله عبد الرحمن الداخل لأصحابه يحثهم على القتال يوم

---

(١) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩١ ، ١٠٣ .

- أن خاض المعركة الفاصلة ضد يوسف الفهرى ، آخر ولاة الأندلس . قال عبد الرحمن : « هذا اليوم هو أسٌ ما يبنى عليه ، إما ذل الدهر وإما عز الدهر . فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون . تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون »[١] .

ومن الرسائل ما كتب به عبد الرحمن الداخل إلى خارج عليه يسمى سليمان الأعرابى ، وهو قوله : « أما بعد . فدعنى من معاريض المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدنّ يداً إلى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لأزوين[٢] بنانها على رضَف[٣] المعصية ، نكالا بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد »[٤] .

ومن أمثلة الوصايا ما وجهه الحكم الربضى إلى ابنه عبد الرحمن ، حين شعر بدنو أجله فقال : « إنى قد وطدت لك الدنيا ، وذللت لك الأعداء ، وأقمت أود[٥] الخلافة ، وأمنت عليك الخلاف والمنازعة . فاجر على ما نهجت لك من الطريقة . واعلم أن أولى الأمور بك وأوجبها عليك ، حفظ أهلك ثم عشيرتك ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك . فبهم أنزل ثقتك ، وإياهم واس من نقمتك ، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين إلى مراتبهم من عوام رعيتك ، الذين لا يزالون ناقمين على الملوك أفعالهم ، مستثقلين لأعبائهم . فاحسم علالهم ببسط العدل لكافتهم ، واختيار أولى الفضل والسداد لأحكامهم وعمالتهم ، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة . وإن رأيت فيمن يرتقى من صنائعك[٦] رجلا لم تنهض به سابقة ، ويشف بخصلة[٧] وتطمح نفسه وهمته ، فأعنه واختبره ، وقدمه واصطنعه .

---

(١) انظر هذه الخطبة فى : نفح الطيب ج ٢ ص ٧٠ .

(٢) زوى الشىء : جمعه وقبضه

(٣) الرضف : الحجارة المحماة .

(٤) هذه الرسالة واردة فى : نفح الطيب ج ٢ ص ٦٨ – ٦٩ وفى البيان المغرب ج ٢ ص ٨٦ .

(٥) الأود : الاعوجاج .

(٦) صنائعك : من ربيتهم .

(٧) الخصلة : الفضيلة .

ولا يربك خمول أوله ، فإن أول كل شرف ما ربّيته . ولا تدعن مجازاة المحسن بإحسانه ، ومعاقبة المسيء بإساءته ، فإن التزامك لهذين ، ووضعك لهما موضعهما ، يرغّب فيك ويرهّب منك »[١] .

ومن أمثلة المحاورات ما دار بين جندى وعبد الرحمن الداخل ، حيث قال الجندى : « يا ابن الخلائف الراشدين . والسادة الأكرمين . إليك فررت ، وبك عذت . من زمن ظلوم ، ودهر غشوم . قلل المال ، وكثّر العيال ، وشعث الحال ، فصير إلى ندالك المآل . وأنت ولىّ الحمد والمجد ، والمرجو للرفد » .

فأجابه عبد الرحمن :

« سمعنا مقالتك ، وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقامك . فلا تعودون ولا سواك لمثله ، من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة ، والإلحاف فى الطّلبة . وإذا ألم بك خطب أو حزّبك أمر ، فارفعه إلينا فى رقعة لا تعدوك ، كيما نسرّ عليك خلّتك[٢] ، ونكف شمات العدو عنك ، بعد رفعها إلى مالكك ومالكنا — عز وجهه — بإخلاص الدعاء وصدق النية »[٣] .

---

(١) هذه الوصية واردة فى : المقتبس لابن حيان (جزء عن إمارة عبد الرحمن الأوسط ، كان عند الأستاذ ليڤى بروڤنسال) .

(٢) الخلة : الحاجة والفقر .

(٣) راجع هذه المحاورة فى : نفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ٦٨ .